الربعي
فضائل الشام ودمشق

تحقيق

صلاح الدين المنجد

(مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٢ م)

إحياء الكتب العربية ركن من أركان النهضة القومية فى مختلف بلاد الشرق الأوسط ، سواء أكانت هذه الكتب ذوات عناوين وطنية واضحة ، مثل تاريخ دمشق لابن عساكر ، وفضائل بغداد للسرخسى ، والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن ، أو ذوات عناوين مسجوعة رنانة ، مثل الدر المنظوم فيما ورد فى مصر من موجود ومعدوم للجوهرى ، وذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه ، والطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد للأدفوى . وهناك نوع ثالث من الكتب القديمة ، وهى من ذوات الصفة الدينية السياسية ، مثل فضائل الأنصار لابن وهب ، وفضائل محمد بن الحنفية للمدائنى . وبعض هذه الكتب مطبوع ، وبعضها الآخر مخطوط ، ومنها ما ليس من هذا أو ذاك ، بل غير معروف عنه شيئاً إلا عنوانه ، أو مقطوعة من متنه ، نقلها ناقل فى تأليفه ، بإشارة أو بغير إشارة إلى مؤلفها وصاحبها الأول .

وأقول إن هذه الكتب التى ينعتها بعض الناعتين بصفات جائرة ، ليست صفراء باهتة المعرفة ، كما يريدون أن يقولوا ، بل تشفّ محتوياتها عن ألوان أخرى من معرفة العصور الوسطى وأهلها المدرسيين (الإسكولائيين) ، وهى معرفة الذين نحن أبناؤهم رغم النسيان ، أو الجهل . ولذا فهذه الكتب جديرة بالنشر والفحص والاستصفاء ، احتراماً لما قدّمت من سبب ، ولما فى نشرها من عرفان بالجميل ، ولما فى هذه الكتب نفسها من رطب ويابس ، وما بينهما من طعوم المعرفة ، فضلا عن أصول هى أصولنا ، ولا سبيل إلى إنكارها أو التنكر لها

أو جحودها، أو تصغير شأنها فى تكويننا . ذلك أننا نريد أن نلمّ بتلك الأصول إلمامة تامة مرّة واحدة فى غير اختصار ، أو مهل أو استصغار ، لنفهم منها صياغتنا الحاضرة ، ولنعدل من هذه الصياغة تعديلا توجبه مقتضيات الحياة الحديثة القائمة على حقوق الإنسان ، من حيث الفردية العاقلة والديموقراطية المسئولة .

وربما يقول بعض القائلين إن مقتضيات الحياة الحديثة — والمستقبلة — تتطلب الاستمداد الثقافى من الغرب الأوربى والأمريكى فحسب ، لا من الكتب القديمة وأشباهها مما طال عليه سالف الأمد . وهنا موضع الخلاف بينى وبين أصحاب هذا الرأى ، فى غير عنت أو تزمّت من ناحيتى ، إذ الطريق السوىّ عند العقليين هو النصفة الذى لا يهبط ولا يهوى إلى هذا أو ذلك ، بل يأخذ من كليهما أخذ الممعن الحاسب . بعبارة أخرى ينبغى على الشرق الأوسط أن يأخذ من الشرق والغرب معا ، على قاعدة الاختيار والاقتباس من المنبعين . ومن البديهى أن الاقتباس من المنبع الشرقى معناه إحياء الكتب القديمة فى مختلف العلوم والفنون ، بالنشر السليم . ومن البديهى كذلك أن التمنوع بالاستمداد من الغرب يجعل البناء الثقافى بالشرق على أساس غير مطمئن (maladjustment) ، وهو أخطر أنواع البناء عند أرباب علم النفس التربوى ، وأرباب علم النفس الاجتماعى كذلك .

ومن النوع الأول من أنواع الكتب التى أشرت إليها فى هذه الفاتحة الطويلة كتاب فضائل الشام ودمشق للربعى الذى سماه معاصروه أبو الهول ، لسبب لم يتضح لى بعد . والربعى مؤرّخ محدّث ، وهو سابق على ابن عساكر مؤلف تاريخ دمشق، بما يزيد على قرن وربع قرن من الزمان ، وهو كذلك مرجع من مراجع ابن عساكر فى تاريخه الكبير . والمتتبع لأخبار كتاب الربعى يجدها كلها فى تاريخ دمشق ، على قول الناشر فى مقدمته . (ص ١٤) . والناشر مشكور لحرصه على تسجيل براهين هذه العبارة فى الملحق الأول من بحوثه التى ذيل بها هذا الكتاب ، وعنوان هذا الملحق الأول ما فى تاريخ دمشق (لابن عساكر) من أخبار كتاب الربعى . (ص ٨٣ — ٨٨) .

على أن موضع الأهمية فى الإشارة إلى سبق الربعى على ابن عساكر ،

ودراسة أزمنة المؤلفين وترتيبهم فى التأليف ، لا يقتصر على بيان الزمنية والمكانية والطاقة فى المعرفة ، فالسابقون السابقون ، واللاحقون اللاحقون . ولذا ينبغى أن يتعدّى البحث فى هذه النقطة إلى تقرير ما استطاع اللاحقون من إفادة وخطوة إلى الأمام فى سبيل التقدم الإنسانى ، بالقياس إلى السابقين لهم . هل عمل علماء المسلمين مثلا على تحقيق هذه الغاية المتحركة دائماً إلى الأمام ، أو أن المدرسية (الإسكولائية) التى ساروا على نهجها كبتت فيهم دوافع التقدم وأنكصتهم عن السير بتأثيرها ، مع العلم بأن التقدم سنة من السنن الكونية .

وإخراج هذا الكتاب الصغير إلى عالم المطبوعات من أفضال المجمع العلمى العربى بدمشق ، وأفضال جهود الناشر كذلك . ورحم الله شيخنا كرد على ، صاحب الكثير من هذه الأفضال التى تنبئ بها جهود تلاميذه ، وتدلّ عليها مؤلفاته ومصنفاته ، منذ أوائل هذا القرن العشرين الميلادى .

أما طريقة إخراج هذا الكتاب مطبوعاً من نسخة فريدة ، فلا غبار عليها ، بعد أن ظلت هذه النسخة فى ثوب المخطوطات أجيالا ، بالظاهرية بدمشق . وهى طريقة زعيمة بانتباه المتصدرين للنشر العلمى ، لأن بعض المخطوطات فريد فعلا ، ولا توجد منه سوى نسخة واحدة ، ولا سبيل إلى نشرها إلا بهذه الطريقة ، أو شبهها . ذلك أن الناشر هنا سلّط على المتن المفرد مقارنة دقيقة بتاريخ دمشق لابن عساكر ، وبكتاب فضائل دمشق للفزارى ، وأولهما مستمدّ من الربعى أبواباً بحالها فى ثنايا كتابه الضخم ، وثانيهما ناقل منه نقلا حرفيًّا كليًّا ما عدا الأسانيد الحديثية . (انظر ص ١٤ ، ١٩) . ولذا جاء المتن جلياً ، كأنما استقامت للناشر أكثر من نسخة لمخطوطة الربعى ، كما جاءت الحواشى على قدر معلوم . والناشر ملتزم فى الواقع ما رسمه لنفسه من القصد الحميد فى غير هذا الكتاب ، إيثاراً منه للمتن أن يشغل دائماً معظم الصفحة ، ومعظم التفات القارئ الذى سوف يرى أن الكتاب كله واضح ، لا تثقله الحواشى ولا تبهظه الشروح (انظر المقدمة ، ص ٢٣) ، وهذا عندى أجود النشر وأحسنه .

غير أنه يبدو لى أن الناشر غلبه هذا القصد فى الحواشى إلى مرتبة التقتير ، إذ عبر عدداً من الأسماء الجغرافية والألفاظ اللغوية دون أن يعطيها شيئاً من ضوئه ، ومثال ذلك الطوانة ، العمود المسفط ، الأشبان ، برزخ المثوى ، الحبية ، أبدالا ، مقرى ، قينية ، يعفور ، قعاص الغنم ، مستخص الدولة (ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ١١٢ ، على التوالى) . ذلك أن القارئ يؤوده الرجوع إلى القاموس كلما تعثر بكلمة ، ويحمد للناشر دائماً توفير ذلك عليه بحاشية توضيحية تحفظ عليه انصرافه إلى القراءة ، والإفادة فى غير عناء . ثم إننا بحاجة إلى تثمير الثروة اللغوية بشرح ما نجد من ألفاظ طيبة أضحت غريبة على الناس ، وإلى إشاعة استعمال هذه الألفاظ أو أوزانها أو اشتقاقاتها ، أملا فى سد ما نفتقر إليه فى مدارج النهضة الحديثة من مصطلحات الحياة اليومية الجديدة ، بالشرق الأوسط الجديد .

أما الفهارس فى هذا الكتاب فعامرة متنوعة ، وليس ينقصها إلا فهرس للمصطلح ، من أمثال الألفاظ التى قدمت هنا ، فضلا عن ألفاظ مصطلح الحديث التى أصبحت من مصطلح التاريخ كذلك ، وهى فى الملحق الثانى الذى كتبه الشيخ نوح نجاتى (ص ٨٩ — ١١٠) . والناشر محمود على إيراد هذا الملحق الثانى ، لأنه درس فى علم الحديث يلذ للمؤرخ قراءته ، لمعرفة قواعد التحديث ، وطرق التمييز فى الأحاديث النبوية بين الصحيح ، والضعيف ، والمرفوع ، والموضوع ، والمنكر ، والمعضل ، والباطل ، وهكذا . ذلك لأن هذه الألفاظ الاصطلاحية هامة فى تدريس مناهج البحث فى التاريخ أهميتها فى علم الحديث ، والمؤرخ الذى يستطيع أن يستخدمها فى تقويم مراجعه وترتيبها ، ويجعل منها مسبارا لامتحان حقائقه ، هو القمين بصناعة التاريخ المأمون من القارئين على مقارفتها .

وفى هذا الملحق الثانى كذلك إشارات إلى كعب الأحبار وإسرائيلياته (ص ١٠٩) ، وهى جديرة بتفكير القارئ العربى ، ولا سيما بعد أن خرج پيرلمان بحثه فى كعب الأحبار . (Jewish Social Studies, Vol. 5, 1953) .

ومن الجديد على فى هذا الكتاب أن عبد المطلب جد الرسول دفن بدمشق

(ص ٤٩) ، وأن بني الأصفر تسمية قديمة للدلالة على ملوك غرب أوربا والبابوية (ص ٧٨) ، وهى تسمية شرح القلقشندى أصولها فى كتابه صبح الأعشى . ومن الواضح بعد هذه الإشارات إلى محتويات هذا الكتاب أن الكتب القديمة لا تزال ذخيرة دفينة ، وما ينضج منها للقارئ الأخصائى ينفع كذلك السياسى ، والمؤرخ ، واللغوى ، والمحدّث ، فضلا عن القارئ العام .

محمد مصطفى زيادة

ديسمبر ، سنة ١٩٥٣
مصر الجديدة